أضواء على السلام والحرب فى الشعر العربى

د./ محمود حسن أبو ناجي

تحدثنا كتب التاريخ والمغازي والسير أن منطقة نجد كانت أبرز مناطق القتال في شبه الجزيرة العربية وربما تسأل أين الدليل ؟ فأجيب إن حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان كانت في نجد، وإن حرب البسوس بين بكر وتغلب كانت في نجد، ثم إن العرب الذين جمعوا جموعهم تحت لواء كليب لحرب القحطانيين كانت بأمرة بطل من أبطال العرب في نجد من قبيلة تغلب، ثم إن العرب الذين حاربوا الفرس بقيادة قبائل بكر وقيس كانت تابعة لقبائل العرب في نجد في يوم ذي قار، ومن أراد التوسع فليراجع كتب أيام العرب وغيرها. وهناك سبب آخر ربما كان أكثر أهمية من الدوافع السابقة وهي أن الفارس كانت له هيبة وتقدير ومنزلة عند قومه وعند القبائل الأخرى حتى ولو كانت من أعداء هذا الفارس.

وتحدثنا كتب الأدب والتاريخ أن دريد بن الصمة كان على رأس جماعة من فرسان قومه وأرادوا أن يغتصبوا امرأة من زوجها وهو ربيعة بن مكدَّم والزوجة هي ريطة بنت جذل الطعان(١) وهذه هي القصة التي أوردها صاحب كل من صاحب الأمالي وصاحب الأغاني.

خرج دريد بن الصمة القشيري يوماً في فوارس من بني جشم قاصدين بني كنانة فلما وصلوا إلى وادي الأخرم وهو من أودية بني كنانة شاهدوا رجلاً من ناحية الوادي ومعه ظعينة فلما نظر إليه دريد قال لأحد فرسانه: صح به أن يخلي الظعينة وينجو بنفسه وكانوا لا يعرفونه فأبى أن يجيبه وألقى زمام الراحلة وخاطب الظعينة بقوله:

سيري على رِسْلِكِ سيرَ الآمنِ   سيرَ رداحٍ ذاتِ جأشٍ ساكنِ⁽٢⁾
إن انثنائي دون قِرْني شائني   فابلي بلائي واخبرِي وعايني

ثم حمل ربيعة على هذا الفارس حملةً عنيفة وصرعه وأخذ فرسه، وأعطاها للظعينة، ودريد في كل هذا يراقب فما كان منه إلا أن أرسل فارساً آخر، ففعل به مثلما فعل في الأول ثم قال:

خلّ سبيلَ الحرّةِ المنيعةِ   إنك لاقٍ دونَها رَبيعَه⁽٣⁾
في كفه خِطيّةٌ مطيعة   أولا فخذها طعنةً سريعة
والطعن مني في الوغى شريعة

فما كان من دريد وهو يراقب هذا الموقف الخطير إلا أن بعث فارساً ثالثاً حيث طلب من ربيعة بن مكدم أن يترك الظعينة وينجو بنفسه فقال ربيعة لزوجته اقصدي نحو البيت ثم اقبل على خصمه وقال:

ماذا تريدُ من شتيمٍ عابسٍ   ألم تر الفارسَ بعدَ الفارسِ⁽٤⁾
أرداهما عاملُ رمحٍ يابسِ

ثم حمل عليه وصرعه وانكسر رمحه في تلك المعركة، وارتاب دريد في الفرسان وظن أنهم قد أخذوا المرأة وقتلوا الرجل ولم يعودا إليه فذهب بنفسه ولحق بالرجل وشاهد جميع فرسانه قتلى فما كان منه إلا أن أكبر بطولة هذا الفارس العربي الشجاع وقدر رجولته وقال له أيها الفارس .. إن مثلك لا يقتل ولا أرى معك رمحاً، وأنت حديث السن والخيل ثائرة بأصحابها، فدونك هذا الرمح ـ فإني منصرف إلى أصحابي، فمثبطهم عنك، ثم انصرف إلى أصحابه وقال لهم إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فرسانكم ثم انتزع مني رمحي ولا مطمح لنا فيه فانصرفوا فرجع الفرسان وتفرقوا فقال دريد بن الصمة قطعة أولها:⁽٥⁾.

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثلِه   حامي الظعينةِ فارساً لم يُقْتلِ

وقد كان هذا الفارس الذي حمى شرفه وعرضه هو ربيعة بن مكدم الذي قال مفاخراً بهذا اليوم:

إن كان ينفعُكِ اليقينُ فسائلي   عني الظعينةَ يومَ وادي الأخرم
إذ هي لأول من أتاها نهبةٌ   لولا طعانُ ربيعةَ بنِ مكدَّم

أرأيت أيها القارىء إلى أي مدى كان العربي يحترم الفارس البطل حتى ولو كان من أعدائه ولعمري، إن هذه تقاليد كريمة لأن الإنسان يعجب بالبطولة والأبطال بصرف النظر عن دوافع الحرب التي تقوم بين الناس وقد قدر الإسلام البطل الذي يدافع عن مبادىء الحق والخير دون اعتداء أو ظلم وخاصة الذي يقاتل في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل حتى إن الرسول ﷺ قد عد الفرار من المعركة من الكبائر.

وقد كان الشعراء أنفسهم سبباً من أسباب استمرار نزيف الدماء حيث يدعون إلى أخذ الثأر وعدم التعقل يقول أحدهم:

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي   أضربْك حتى تقولَ الهامةُ اسقوني

ويقول عمرو بن براقة الهمذاني (الحماسة البصرية ص ١١١ ترجم ٢٣٣).

متى تجمع القلب الذكيّ وصارماً   وأنفاً حمياً تجتنبْك المظالمُ

وقول قريط بن أُنيف أحد بني العنبر (حماسة أبي تمام ص ٤).

قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائباتِ على ما قالَ برهانا

ويقول آخر:

تعدو الذئابُ على من لا كلاب له   وتتقي صولة المستأسدِ الضاري

على أن الدعوة لم تقف إلى القتال فقط بل تعدته إلى الحض على الحرب والثناء على المقاتلين مهما كانت الظروف وأثنت على حسن بلائهم وإتهام وتعيير الجبناء بالنقائص والعيوب. أمام الأعداء حتى إن القرآن الكريم قد امتدح الشجاعة الإيمانية التي مبعثها إحقاق الحق وإزهاق الباطل وفي موطنها وعند الحاجة إليها واعتبر هروب المقاتل من الحرب من الكبائر قال تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً، فلا تولوهم الإدبار ◦ ومن يولهم يومئذ

دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير»(٦).

وهكذا فإن البطولة والشجاعة في مواطن الحق من الصفات الحميدة التي يحرص عليها الإسلامَ بعكس الجاهلية التي كانت لا ترى إلا الوقوف بجانب القبيلة ويصدق عليها المثل العربي المشهور (في الجريرة تشترك العشيرة) وربما كان الظلم سبباً من أسباب عدم الاعتداء في نظر بعض الشعراء.

يقول زهير (ومن لا يظلم الناس يظلم) المعلقات العشر ص ١٥٣ ويقول المتنبي ديوانه ص ٦٣٠:

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فإنْ تجدْ   ذا عفةٍ فلعلةٍ لم يظلمِ

●صدى السلام عند الأفراد●

إذا تتبعنا شعراء الجاهلية، وجدنا أن عدداً قليلاً كان ينادي بالسلام بين العرب ومن هؤلاء الشاعر التميمي ذو الإصبع العدواني وهو من فرسان الشعراء المعدودين في الجاهلية ورغم كثرة المعارك التي شارك فيها إلا أنه كان ينادي بالسلام وقد صور في قصيدته الأخلاقية العربية الرفيعة حلماً عند الغضب، وترفعاً عن الدنايا، ومراعاة للأرحام، وحباً في التسامح من ذلك ما يقوله: (٧)

ولي ابنُ عمٍ على ما كان من خُلُقٍ   مختلفانِ فأقليه ويقليني(٨)
فإن تُرْد عَرَض الدنيا بمنقصتي   فإنْ ذلك مما ليس يَشجيني
ولا ترى فيّ غير الصبر منقصةً   وما سواه فإنّ الله يكفيني
إنّ الذي يقبض الدنيا ويبسطها   إن كان أغناك عني سوف يغنيني
إني لعمرك ما بابي بذي غلقٍ   عن الصديقِ ولا خيري بممنونِ
يا عمرو لو لُينت ألفيتني بشراً   سمحاً كريماً أجازي من يجازيني(٩)
والله لو كرهت كفي مصاحبتي   لقلت إذ كرهت قربي لها بيني

فإذا تفحصنا هذه الأبيات لهذا الشاعر لوجدنا أن فيها روحاً كريماً لمن يريد الصفح والتسامح والدعوة إلى الهدوء والسلام، ولكن لكل شيء نهاية وحد، فإذا بلغ السيل الزبى فليس هناك إلا ركوب الصعاب حتى ولو كان هذا المعتدي أحد أعضاء جسمه، ولا شك أن هذه صورة نابضة بالحيوية والصدق الفني بما في الألفاظ من حلاوة تعبير، وبراعة تصوير،

وعمق إحساس وبراءة خيال، وجمال أسلوب، وموسيقى تنساب إنسياب الماء في الجداول بكل رقة وبهاء.

ونجد أن شاعراً آخر وهو طرفة بن العبد يصور ظلم الأقارب بأنه أشد من وقوع السيوف لأن الغريب معذور في الكره والقريب محسوب في جانبه المودة والرحم فيقول:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً   على النفس من وقع الحَسام المهندِ(١٠)

وقد أقر بعض شعراء الجاهلية بحقيقة ثابتة هي أن الخطأ من طبع الإنسان وليس هناك عصمة لأحد من البشر فإذا عرفنا هذه الحقيقة أمكننا علاج الأخطاء، ثم عدم الوقوع فيها ثانيةً وثالثةً، يقول النابعة: (١١)

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلمَّه   على شعثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ

حقاً! ليس هناك كمال لأحد من الناس وصدق الرسول ﷺ الذي يقول: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» (١٢) ويقول الحق تبارك وتعالى: «نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ۝ وأن عذابي هو العذاب الأليم»(١٣).

●السلام في عصور الإسلام●

ما من دين دعا إلى السلام كما دعا الإسلام، فإذا دخل التحريف والتأويل في اليهودية والنصرانية فإن الإسلام ثابت في قواعده ونصوصه وأحكامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى:

۝ (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(١٤).

فقد دعا الإسلام في أول أمره إلى عبادة إله واحد حكيم صبور حليم عفو كريم بحق، قال الله تعالى:

۝ (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)(١٥).

ثم دعا المؤمنين كافة إلى المودة وحسن الأخلاق والتعاون، قال تعالى:

۝ (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)(١٦).

- **(واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً)**(١٧).
- **(فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)**(١٨).
- **(وإنْ أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)**(١٩).
- **(ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)**(٢٠).

أما أحاديث الرسول ﷺ في الحث على السلام والرحمة بالناس والعطف عليهم فحدث عنها ولا حرج من ذلك هذه السلسلة العطرة من الأحاديث:

- **يقول الرسول ﷺ: (افشوا السلام، وأطعموا الطعام، وكونوا إخوانا كما أمركم الله تدخلوا الجنة بسلام)**(٢١).

حيث إن الرسول بأدبه الرفيع وحسن إرشاده وتوجيهه قد وصف أن أحد الناس قد يدخل النار بسبب تقصيره في العطف على الحيوانات.

- **يقول الرسول ﷺ: (دخلت امرأة النار في هرةٍ ربطتها ـ فلم تطعمها ـ ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت)**(٢٢).

وعندما دخل الرسول ـ ﷺ ـ مكة فاتحاً بعد أن أذاقته قريش الويلات والعذابُ من تكذيب واتهام بالجنون والسحر والشعر قال الرسول لقريش: ما تظنون أني فاعل بكم، قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. حتى إنَّه في أشد ساعات العسر لم يدع على قومع بالهلاك وإنما كان يدعو لهم بالهداية وهذا بعض من حديثه في غزوة أُحد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم أغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون» متفق عليه ـ كتاب منهاج الصالحين حديث رقم ٤٠٠.

- **(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة). سورة الأحزاب الآية ٢١.**
- **(من يطع الرسول فقد أطاع الله). سورة النساء الآية ٨٠.**
- **(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيا شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) سورة النساء الآية ٦٥.**

وقد كرر الحق سبحانه وتعالى الدعوة إلى العفو والتسامح فقال: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)(٢٣).

ومن جلال البلاغة القرآنية أن الله جعل المحبة في صورتها في المضارع لتدل على الاستمرار والدوام فقال (والله يحب المحسنين).

وقد عرف من العرب في الإسلام كثير من دعاة السلام والتسامح وأشهرهم الأحنف بن قيس الذي يقال عنه الكثير من قصص العفو والتسامح فقال: ما أذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث:

- **إن كان فوقي عرفت له فضله.**
- **وإن كان مثلي تفضلت عليه.**
- **وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه.**

ومن هؤلاء المشهورين بالحلم والعفو قيس بن عاصم. فقد قيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم؟ قال من قيس بن عاصم، كنا نتعلم منه الحلم، كما يتعلم الناس الفقه من الفقهاء، ولقد حضرت عنده يوماً، وقد جاءوا إليه بأخ مكتوف قتل ابنا من أبناء قيس، فقال قيس، ذعرتم أخي، أطلقوه واحملوا إلي أم ولدي ديته فإنها ليست من قومنا ثم أنشأ يقول: وقيل البيتان للعريان بن سهلة النبهاني من طيء الحماسة البصرية ص ٤٠.

أقولُ للنفس تصبيراً وتعزية إحدى يديَّ أصابتني ولم تُرِدِ
كلاهما خُلفٌ من فقدِ صاحبِهِ هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

أرأيت أيها القارىء إيجابية إنسانية وشعوراً بالرحمة في أشد الأوقات ضيقاً كهذا الموقف الذي مر بنا من تصرف هذا الحكيم العربي أو أليس يقول الرسول ﷺ: (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقَهوا) رواه أبو هريرة صحيح الجامع الصغير ٣/١١٩ حديث رقم ٣٢٦٢.

ولا بدع في ذلك، فإن الإسلام هو الدين السماوي الخالد الذي لم تتعرض أحكامه ونصوصه للتحريف والتبديل فإنه قد طبع العربي بهذا السياج من الرحمة والعفو والحلم. وقد

اقتدى الشعراء المؤمنون بالإسلام قولاً وعملاً وهم فئة لها خصائصها المميزة أن هؤلاء الشعراء كما ذكرت كانوا يدعون إلى السلام والرحمة والعطف في شعرهم وعدم اللجوء إلى العنف والقوة والجبروت إلا بعد فقدان كل وسائل الإصلاح، ومن هذه المظاهر التي يحرص عليها الشعراء ما يأتي:

أولاً: اعتزاز الشعراء أنفسهم بالدعوة إلى السلام الحقيقي.

ثانياً: إرشاد الناس إلى محاسن السلام وخصائصه الحميدة والتمسك به.

ثالثاً: رد الاعتداء على المعتدين الذين لا ينفعهم إلا الوقوف في وجوههم.

• أولاً: اعتزاز الشعراء أنفسهم بالدعوة • إلى السلام الحقيقي

لعل قصيدة معن بن أوس تمثل ضرباً رائعاً من ضروب الشعر الإسلامي الذي يدل على تسامح النفس الإنسانية تجاه أخطاء الآخرين وقد تمثل فيها الروح الإسلامي المتأسي بالمفاهيم القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة عفواً ورحمةً وترفعاً عن النقائص من بعض ذوي النفوس المريضة، ولا غرابة في ذلك فهذه القصيدة قبس إسلامي رفيع وسيرة حميدة للمسلم الحق الذي يدعو إليه الإسلام. وقد اشتملت هذه القصيدة على كثير من شمائل الأخلاق التي تنسجم مع الفكر الإسلامي إنطلاقاً من الحقيقة التي ذكرتها من قبل وهي حقيقة أن الإنسان يشتمل على عناصر الضعف والخطأ ناهيك عما فيها من الصور الجميلة بلاغةً، وبياناً وتصويراً.

وسأستعرض هذه القصيدة ثم أحلل ما فيها من جمال لغوي، وبلاغة بيانية وتصوير فنان للإنسان في حالتي الضعف والقوة والرشاد والفساد.

قال معن بن أوس: (٢٤)

وذي رَحَمٍ قلَّمتُ أظفارَ ضِغْنِهِ   بحلميَ عنه وهو ليسَ له حِلْمُ
يحاولُ رغـــــمي لا يحاول غيره   وكالموتِ عندي أن يحلَّ بهِ الرَّغْمُ
إذا سمته وصلَ القرابةِ سامني   قطيعَتَهْا تلك السفاهةُ والإثمُ
ويسعى إذ أبني ليهدمَ صالحي   وليس الذي يبني كمن شأنه الهدمُ
فإن أعف عنه أغض عيناً عن قذىً   وليس له بالصفحِ عن ذنبهِ عِلْمُ

وإن انتصر منه أكنْ مثلَ رائشٍ   سهامَ عدوٍّ يستهاضَ بها العظمُ
صبرتُ على ما كان بيني وبينه   وما تستوي حربُ الأقاربِ والسِلْمُ
فلولا إتقاءُ الله والرحمِ التي   رعايتُها حقٌّ وتعطيلها ظلمُ
إذاً لعلاه بارقي وخَطَمْتُهُ   بوسم شنارٍ لا يشاكلُه وسمُ
فما زلتُ في ليني له وتعطفي   عليه كما تحنو على الولدِ الأمُّ
وخفضي له مني الجناح تألفاً   لتدنيه مني القرابةُ والرحمُ
لأستلَّ منه الضغنَ حتى استللته   وقد كان ذا ضغنٍ يضيقُ به الحلِمُ
وأطفأ نارَ الحرب بيني وبينَه   فأصبح بعدَ الحربِ وهو لنا سِلْمُ

في ظلال القصيدة:

استهل معن قصيدته بتحديد الشخص المراد في هذه الأبيات وهو الشخص الذي انحرفت فطرته، وضل السبيل به، وضاقت به مناحي العفو والتسامح حيث استخدم الواو التي بمعنى رب وهي تفيد التقليل أو التكثير وهي هنا تفيد التقليل. ومثال ذلك قول امرىء القيس:

وجيدٍ كجيدِ الرئمِ ليس بفاحشٍ   إذا هي نصَّته ولا بمعطلِ

وخص هذا الشخص الذي ينتمي إلى قبيلته بأنه الذي نال هذا الحلم والصفح والعفو فقال:

إن هذا الرجل قد اقتلع مواطن الحقد والكره منه وذلك بعدة وسائل هي:

أولاً: إنه قد عفا عنه بحلمه وقدرته عليه إذا شاء الانتصاف منه.

ثانياً: إن هذا الرجل السيء يحاول دوماً إيذاءه وإهانته.

ثالثاً: إنه دوماً يترفع عن إيقاع الضرر به والإنتقام منه والحقد عليه.

رابعاً: إنّ هذا المسيء لا يعمل إلا كل شر وضر فيقابل الإحسان بالإساءة والمعروف بالنكران والجحود. فإذا عفا عنه فإنه كمن يغمض عينيه على القذارة والأذى.

خامساً: إن هذا الشاعر بمفاهيمه الإسلامية ومبادئه الأخلاقية قد مد لهذا المغرور الجاهل كل وسائل التساهل واللين والتسامح فإذا حاول إصلاحه كسره عند اللجوء إلى العنف وذلك انطلاقاً من الرغبة في الإصلاح إلى أبعد الحدود صبراً وجلداً وتغاضياً.

سادساً: لو أن هذا الشاعر أراد رد الإساءة لعامله بالسيف وأصابه بعلامة العار والشنار والذل، ولكن الهدف غير هذا إنه هدف الإصلاح والتسامح وما ذاك إلا تقرباً لنفسه، واستلالاً لنوازع الشر منه وبعد هذا الصبر من الشاعر، الإنسان المسلم الذي وضع نصب عينيه الصفح وصلة الرحم، هدى الله ذلك الإنسان المعاند المكابر المغرور إلى جادة الصواب. وأرى أن هذا من مثاليات هذا الشاعر حيث لا يستطيع العربي وهو الذي عرف بالعصبية الشديدة وعدم الرضى بالهوان والذل ولكن ربما وجد ذلك الشاعر الذي نحن بصدده في هذه القصيدة المتألقة. رغم ما نقرأ ونعرف عن العرب الذين يصدق فيهم قول الشاعر:

(تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد الضاري)

وقول زهير بن أبي سلمى:

(ومن لا يظلمِ الناس يظلم)

وبعد...

فقد استعذبنا هذه الظلال الرحيمة الكريمة من هذا الشاعر الذي تأسى بالإسلام أخلاقاً وبالرسول ﷺ سيرةً ومعاملةً وصبراً، وبالرحم مودةً ورحمةً ولطفاً ولكن هذا لم يكن عاماً بين الناس حيث قال الشاعر «وذي رحم» فإنَّ الواو هنا تفيد التقليل.

• الإرشاد إلى التزام السلام والعفو •

إن المقصود بالإرشاد إيضاح أنه من الخطأ الفادح اعتبار الصاحب مبرأ معصوماً، فإذا أخطأ الصاحب مرة أصاب أخرى لذا فإنه من اللازم الإرشاد والبيان يقول عبدالله بن معاوية الجعفري:

لا تيأسنْ من صاحبٍ وتلومه إن زلَّ زلّة(٢٥)
ما من أخ لك لا تصيبَ ولو حَرِصْتَ عليه خُلّه

ويقول بشار بن برد الشاعر العباسي:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقَك لم تلقَ الذي لا تعاتبُه(٢)
فعشْ واحداً أَوْصِلْ أخاك فإنه مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبُه

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى   ظَمِئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُه

حقاً إن الإنسان لا بد أن يقع في الخطأ لذا وجب اعتبار أن الخطأ قرين الصواب ولا يوجد ذلك الشخص الكامل في تصرفاته وسلوكه.

ويقول حكيم العرب وشاعرهم أبو الطيب المتنبي.

وما قتلُ الأحرار كالعفو عنهم   ومن لك بالحرّ الذي يحفظُ اليدا(٢٧)
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمتَ اللئيم تمردا
ووضعُ الندى في موضع السيفِ بالعلا   مضرٌ كوضع السيفِ في موضع الندى

فالمتنبي قد زاد أن الإحسان في غير موضعه ضار والإساءة في غير موضعها مفسدة، فالمرء عليه أن يراعي الجانب الذي يستحق الإحسان أو الإساءة. فيضع كلاً في مكانه المناسب، ومن المأثور في كلام العرب (لكل مقام مقال) ومن تعاريف البلاغة التي تروى عن البلاغيين العرب (البلاغة مراعاة الكلام لمقتضى الحال).

● ثانياً: سلام القبائل أو الجماعات ●

ما من عصر إلا ويحفل بالحروب التي تدمر الأخضر واليابس، وتقتل خيرة الرجال لأن المقاتلين هم الذين يتزعمون قبائلهم وأممهم في الحروب، فتكثر الأيامى والأطفال يفقدون آباءهم ثم أن كل عصر يأتي بالجديد في وسائل الدمار والقتال والقضاء على الجنس البشري وهذا العصر الحاضر فيه ما يدمر العالم في ساعات بفعل الأسلحة النووية الفتاكة.

وإذا كان العصر الجاهلي قد عرف الحروب فيما بين القبائل العربية ذاتها، أو بين القبائل العربية كأمة والأمم الأخرى كيوم ذي قار فإن هناك أصواتاً كانت تنادي بوقف هذه الفظائع التي ليس من ورائها إلا الفتك والقتل والخراب واستعباد الضعفاء وكنا نسمع أصواتاً حكيمة تطالب بوقف القتال من أمثال زهير بن أبي سلمى الذي وضع النتائج أمام أنظار المقاتلين فقال:

يقول زهير من معلقته: (٢٨)

يميناً لنعم السيد ان وُجدتما   على كلّ حالٍ من سحيلٍ ومبرمِ

تداركتما عبساً وذبيانَ بعدَما تفانوا ودقوا بينهم عطر مَنشِمِ
وقد قلتما إن ندركِ السلمَ واسعاً بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نسلمِ

فزهير وضع هذين السيدين في مرتبة عالية من التعقل والإرشاد للمتحاربين بما بذلاه من مال، ومن جهد، ثم صور النتائج الوخيمة للحرب وما تحدثه فقال:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتُمِ وما هو عنها بالحديثِ المرجّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وتضرَ إذا ضريتموها فتضرمِ
فتعرككم عركَ الرحى بثِفالها وتلقح كشافاً ثم تحملُ فتتئمِ
فتغلل لكم مالا تغُلَّ لأهلها قرى بالعراقِ مِن قفيزٍ ودرهمِ(٢٩)

حقاً إن زهير بن أبي سلمى قد حلق في أعلى الأفاق الإنسانية بهذه الصور الجميلة المتلاحقة لتصوير ويلات الحروب ونكباتها وما تخلفه من دمار في بني الإنسان مالاً وولداً ومسكناً وحيواناً وحقداً وضغينةً.

وقد استخدم زهير الشاعر الجاهلي الحكيم كل براعته ومهارته في هذه الصور بما تشع من حيوية وحركة، وتمثيل للواقع المؤلم لعرب الجاهلية، الذين منَّ عليهم بهذا الرسول ﷺ فقال (لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)(٣٠).

ويقول: (وكنتم على شفا حفرةٍ من النارِ فأنقذكم منها)(٣١).

ثم إن براعة زهير لم تقف عند هذا الحد من تصوير فظائع الحروب بل تعداه إلى استخراج صور أخرى عن كرم وأريحية الكرماء وذوي العقول المستنيرة من رجالات الجاهلية والذين دفعوا أموالاً طائلة نظير الإصلاح وإقامة حياة عادلة بين كافة الطبقات. ولا بدع فما يخلو عصر من عقلاء يقفون بجانب الحق والسلام ومن حكماء يحذرون المتهورين من مغبة الظلم والعدوان وعندما جاء الإسلام كان هؤلاء العقلاء والحكماء في مقدمة المسلمين أمثال أبي بكر الصديق ولبيد بن ربيعة والنابغة الجعدي وغيرهم كثير.

• مظاهر السلام في عصور الإسلام السالفة •

إن الإسلام يحمل بين جوانحه كل آيات الحكمة والسلام والمودة حتى إن السلام اسم من

أسماء الله الحسنى ثم وصف حال المؤمنين في الجنة بأنهم في دار السلام.

«تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً»(٣٢).

ومن أروع الأمثلة على سلوك المسلمين طريق السلام في الحياة العامة قوله تعالى: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً»(٣٣).

ولكن إذا اعتدى معتد أثيم غير آبه بكرامة المسلمين ولا بعقيدتهم فما على المسلمين إلا امتشاق السلاح وإذلال هؤلاء الكفرة المعتدين «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين»(٣٤).

ويقول: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله، واعلموا أن الله مع المتقين»(٣٥).

ويقول تعالى مؤكداً على حرب الذين يريدون القضاء على الإسلام: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»(٣٦) وقد أوصى الرسول ﷺ بالحرص على السلام وعدم اللجوء إلى القوة إلا بعد نفاذ الحيلة مع العدو فقال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية»(٣٧) فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الخير تحت ظلال السيوف».

وقد اقتدى الخلفاء الراشدون بسياسة الرسول ﷺ في معاملة العدو، ومن المأثور في ذلك قول أبي بكر الصديق لأسامة ابن زيد أثناء قيادته لجيوش المسلمين(٣٨).

لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيراً إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم، وما فرغوا أنفسهم له.

وشبيه بهذا قول الخليفة الراشد علي بن أبي طالب للأشتر النخعي لما ولاه مصر(٣٩): «ولا تدفعن صلحا دعاك إليه عدوك لله فيه رضا فإن في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، فإنه لا يجتزىء على الله إلا جاهل شقي، وإياك والدماء وسفكها بغير حلها فإنه ليس شيء ادعى لنقمة، ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة، وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها».

فهذه الوصايا من أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب اقتداء بسيرة الرسول ﷺ في

معاملة الأعداء وعدم الولوغ في سفك الدماء إلا بحقها فإن الرسول لم يلجأ إلى الحرب إلا بعد أن لم يجد وسيلة غيرها لنشر دين الله، وبقاؤه في مكة المكرمة مدة طويلة، وذهابه إلى الطائف، وغيرها، من أحياء العرب وعرضه الدين الجديد دون إراقة دماء خير دليل على ذلك، وسوف أستعرض بعض النماذج التي تدل على ما زعمت من أن الإسلام لم يلجأ إلى الحرب إلا بعد نفاد كل حيلة وسلوك كل السبل للدعوة واقتناعه تماماً أنه لا مفر من الحرب عندئذ كُلف المسلمون بالقتال فقال تعالى: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز»(٤٠).

وهذه نماذج من شعر الصحابة للرد على المشركين عندما هدد ضرار بن الخطاب بن مرداس المسلمين عقب هزيمة المشركين في غزوة الخندق قال كعب بن مالك في الرد على ضرار(٤١).

وسائلةٍ تسائل ما لقينا　　　ولو شهدت رأتنا صابرينا
صبرنا لا نرى لله عِدْلاً　　　على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبيُّ وزيرَ صدقٍ　　　به نعلو البريةَ أجمعينا
نقاتل معشراً ظلموا وعقوا　　　وكانوا بالعداوةِ مُرصدينا
نعالجَهم إذا نهضوا إلينا　　　بضرب يعجل المتسرعينا
لننصر أحمداً والله حتى　　　نكون عباد صدق مخلصينا

في ظلال هذه القصيدة الإسلامية:

يقرر كعب بن مالك وهو الشاعر الصحابي الذي اتخذ من القرآن دستوراً ومن النبي هاديا ومن أحكام الإسلام منهاجاً، أن المسلمين لا يحاربون إلا لينالوا رضا الله تعالى وأن النبي ﷺ كان الهادي الذي يساعدهم في حربهم ضد قوى الشرك والإلحاد وأن هذا القتال ليس نيلاً لمغانم، أو استبعاداً للضعفاء، وإنما هو لإقرار العدل وقهر الظلم، والاستبداد، من أولئك الذين بغوا وترصدوا للمسلمين، للقضاء عليهم ثم إن المسلمين كانوا على مستوى الأحداث في مواجهة هذه القوى الغاشمة شجاعةً وبأساً وبذلاً ورصاً للصفوف وإزهاقاً للباطل وإحقاقاً للحق وترسيخاً لدعائم الوحدانية في هذه الجزيرة العربية تمهيداً لنشرها.

ومن النماذج الحية التي تدل على الإيمان الصادق في نصح القوم وإرشادهم إلى خير هذا الدين الكريم ما يقوله امرؤ القيس بن عابس بن المنذر الكندي في لوم بني كندة عندما ارتدوا عن الإسلام وحاربوا جنود أبي بكر الصديق وتدل على أنه قد تبرأ من هؤلاء القوم رضاً لله، ونصحاً لرسوله ﷺ وأن قومه شؤم قد حاربوا هذا النبع الصافي والمعين الذي فيه نجاة الناس من عذاب أليم يقول: (٤٢)

ألا أبلغْ أبا بكرٍ رسولا وبلِّغها جميعَ المسلمينا
دعوت عشيرتي للسلم حتى رأيتهم أغاروا مفسدينا
فليس مجاوراً بيتي بيوتا بما قال النبي مكذبينا
ولا متبدلاً بالله ربا ولا متبادلا بالدين دينا
شأمتم قومكم وشأمتمونا وآخركم سيشأم أخرينا

هذه نماذج من الإيمان الصادق من أمير عربي أسلم وعرف الحق فنصح قومه وحذرهم من الضلال والانحراف وأوضح أن العاقبة مرة وستكون شؤما عليهم وعلى قومهم.

ومن الأقوال عن الحرب أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عمرو بن معدكرب فقال: صف لنا الحرب: فقال: مرَّةُ المذاقِ، إذا كشفت عن ساقٍ، من صبر فيها عُرِفَ، ومن نكل عنها تَلِف، ثم ذكر ثلاث أبيات وصف فيها الحرب بأنها تخدع المتحاربين في أول أمرها، فيغفلون عن ويلاتها، ثم إن الحرب تكويهم بنارها، فهي كالشابة الحسناء التي تفتن الإغرار والحمقى والجهلة بمنظرها الخلاب ثم تظهر لهم أنها قبيحة كريهة عجوز ابيضٌ شعرها، وجزت رأسها، وتغيرت خلقتها فلا يرضى أحد أن يدنو منها ولا يحب أن يراها:

يقول عمرو: (الشعر والشهراء ١/٣٧٢ ـ ولسان العرب ٩/٤١٦).

الحربُ أولُ ما تكون فتيةً تسعى ببزتها لكلِّ جهولِ
حتى إذا حميت وشبَّ ضِرَامُها عادت عجوزاً غيرَ ذاتِ خليلِ
شمطاء جزّتْ رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيلِ

حقاً إن الحرب في بدايتها تكون هينة في استخدام العتاد ومؤنة الحرب ولكن عندما تشتد تأتي على الأخضر واليابس، على أن بعض العقلاء الذين ينظرون بنور إلى النتائج يحذرون

وينذرون وينبهون المتسرعين إلى الحروب بأن العواقب وخيمة بما تجره من دماء الأبرياء ثم إن هؤلاء المتسرعين يكونون أول الصرعى في ميادين القتال من أولئكم العقلاء معن بن أوس الذي مر بنا بعض قصائده حيث يقول: (٤٣)

نبهت أبا عمرو عن الحرب لو يرى   بـرأي رشيدٍ أو يؤول إلى عزمِ
وقلت له دع عنك بكراً وحربها   ولا تركبنْ منها على مركبٍ وخمِ
ومهلاً عن الحربِ التي لا أُديمُها   صحيحٌ ولا تنفك تأتي على سُقُمِ
فإنْ يظفرْ الحرب الذي أنت فيهم   وآبوا بِدُهْمٍ من سباء ومن دُهمِ
فلا بـدَّ من قَـتلى وعـلك فيهم   وإلا فجرحٌ ليس يكنى عن العظمِ
دعـاني يشبُّ الحربَ بـيني وبينه   فقلت له: لا، بل هلم إلى السلم
وأمـهـلني حـتى رمـانِي بِحرِّها   تـغـلـغـل من غي ومن إثْم
فـلما رمـانيهـا رمـيتُ سوادَه   ولا بد أن نرمي سواد الذي يرمي
فـكان صريعَ الخيلِ أول وهلةٍ   فبعداً له مختار جهلٍ على حِلْمِ
فبتنا على لحمٍ من القومِ غَودرت   أسـنـتـنـا فـيه وباتوا على لحمِ
وأصبح يـبكي من بنينَ وإخوةٍ   حسان الوجوه طيبي الجسم والنسمِ
ونحن نـبـكي إخوة وبنيهـم   وليس سواء قتلُ حقٍّ على الظلمِ

فقصيدة معن هذه بحق درة أدبية في بيان العواقب الوخيمة وما تجره من نكبات وما تحل من الخطوب بالمعتدين الذين لا يتخذون من نصائح الناصحين موعظة ولا من دماء الأبرياء رادعاً ولا من فقدان الرجال زاجراً ولا من الثكالى رحمة، إن الحرب تفعل كل الآثام والشرور في بني الإنسان ولكنَّ هؤلاء المعتدين لا يتنبهون إلا بعد فوات الأوان.

وقد صدق النابغة الجعدي عندما حذر من شرور الحرب وآثامها وأنها تقضي على الأبطال والجيادِ الأصيلة وتستنفد الأموال وتورث الأحقاد وتقطع علاقات الناس الاجتماعية فقال في ذلك: (٤٤).

ألم تعلموا ما تورث الحربُ أهلها   وعند ذوي الأحلام منها التجاربُ
لها السـادةُ الأشرافُ تـأتي عـليهم   فتهلـكـهـم والسـابحاتُ الـنجائبُ
وتستلـب المالَ الـذي كـان ربه   ضـنـيـنـاً والحرب فيها الحرائبُ

أما أبو تمام الشاعر العباسي الحكيم فإنه يرى الحرب مهلكة وأن الحكيم فيها ينقلب إلى سفيه ألم يكن الحارث بن عباد البكري من حكماء بكر وكان قد اعتزل الحرب بين قومه بكر وبين تغلب حتى قتل ابنه بجير فركب رأسه وجن جنونه وطار صوابه وفقد كل تفكير معتدل فأنشد القصيدة المشهورة واستهلها بهذه الحكمة الجميلة فقال: (أيام العرب ١/٧٦).

كــلُّ شيء مصــيـرُه لــلـزوال   غــيــرَ ربي وصــالحِ الأعمال

ثم دخل إلى صلب الموضوع فقال:

يا بجير الخيرات لا صلح· حتى   نملأ الـبـيـدَ من رؤوس الرجال

وعلى غراره قال أبو تمام: (٤٥)

والحربُ تركب رأسَها في مشهدٍ   عـدل السـفـيه به بألف حليمِ
في ســاعــة لو أن لــقمانــا بها   وهو الحكيمُ لكان غيرَ حكيمِ

وقد أشار المتنبي إلى هذا المعنى الذي أشرت إليه قبلاً في أن الحق أحياناً يتطلب أن تستخدم القوة في موضع القوة والحلم في موضع القوة ضعف، وعلى نهج أبي تمام سار أبو العلاء في تصوير بشائع الحرب وويلاتها فقال: (٤٦)

بني زمني هـل تـعـلـمون سرائراً   عـلـمت ولـكني بها غـيرُ بائحِ
سريتم على غـلٍ فـهلا اهـتـديتم   بما خبرتـكـم صـافيـاتِ القرائحِ
وصاح بكم داعي الضلالِ فما لكم   أجبتم على ما خيلت كل صائحِ
فإن تَرْشُدوا لا تخضبوا السيف من دمٍ   ولا تـلـزموا الأمـيال سبرَ الجرائحِ

وهكذا استعرضنا بعض النماذج لشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر العباسي تقبح الحرب وتبين شرورها إلا عند الضرورة التي لا مفر منها لمواجهة المعتدين فإنه لا مناص من الاستعداد والقتال حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

● إحتفاء شعراء العصر الحديث بالسلام ●

لعل شوقي كان أبرز من حذر من الحروب وويلاتها وقد أشفق على بني الإنسان من الدمار والهلاك فقال بعض القصائد محذراً ومنذراً وقد أبدع شوقي وهو الشاعر القدير قدرة فائقة في

تصوير الحروب وهي في نظره ليست إلا إغتصاباً لحقوق الآخرين استعباداً للضعفاء واستعماراً لبلاد يراد نهب خيراتها فقال: (٤٧)

لا تذكرنَّ الحرب أو أهوالها   إلا بقلبٍ خاشعٍ يتوجعُ
وأذرف على القلب الدموعَ فكلكم   في آدمٍ أهلٌ وآدمُ يجمعُ
للخلق صبيان كما لك صبيةٌ   ولهم لباس فارقوه ومضجعُ
واسمع حديث جناتها وصُلاتها   هل كان فيها للديانة موضعُ
المال باعثها الأثيم ولم تزلْ   تردي المطامع ناسهن وتصرع

على أن شوقي الذي حذر من الحرب ودعا إلى السلام وهتف به وحض على الاستقرار للأمم بين جوانبه يتحول إلى داع للحرب وذلك بعد أن أقدم الإيطاليون المستعمرون على إعدام البطل الإسلامي المرحوم عمر المختار فقال: (٤٨)

ركزوا رفاتَك في الرمال لواء   يستنهض الوادي صباحَ مساء
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم   يوحي إلى جيل الغدِ البغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة في غدٍ   بين الشعوب مودةً وإخاء
جرح يصيح على المدى وضحية   تتلمَس الحرية الحمراء

وفعلاً فإن جرائم الاستعمار كان مدعاة لأن يثور الأحرار من المسلمين في العالم العربي والإسلامي لتحرير أوطانهم ودحر قوى الصليبية عن ديارهم ولن يكون ذلك إلا بفعل الأسباب وأولها التمسك بأهداب الدين الحكيم وثانيها الاقتداء بالرسول ﷺ في أسلوب معاركه سلماً وحرباً وثالثاً تطهير الصف الإسلامي من العملاء.

أما في فلسطين البلد المبتلي بكل أنواع الخطوب والويلات والذي حل بشعبه مالم يحل بشعب من شعوب الأرض قاطبة تشريداً لأهله، وإقتلاعاً لهم من جذورهم، إلى بلدان العالم واستعباداً لهذا الشعب ويكفي أن يحمل الفلسطيني هذا النسبة لهذا البلد حتى يصير سبة ويحمل كل أنواع الايذاء هذا الشعب الذي ذاق الويلات من المستعمر الصليبي الحاقد والذي مكن لليهود من إحتلاله بإعطائهم السلاح والأرض والدعم وإذلال مواطنيه بشر شعوب الأرض قاطبة وأعتاهم كفراً، وأشدهم لؤماً، وأخسهم حقداً، وأنذلهم جنساً، وأفظعهم فتكاً. ولكن سكان هذا البلد الأبي لم يأبهوا ولم يرضخوا للاستعمار ولا ليهود بل إنهم واجهوا هذه القوى بكل

صنوفها وأبعادها من فئات شتى من صليبية حاقدة على العرب والإسلام، ومن شيوعية كافرة مارقة من كل دين وخلق وعرف، ومن يهود يحملون بين ضلوعهم الشنآن على الإسلام والمسلمين والعرب منذ أخرجهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب من هذه الجزيرة التي لا يجتمع فيها دينان.

أقول إن هذه القوى الحاقدة وما وجدتْ من أعوان في ديار العرب مرقوا من الدين، وخرجوا على الإسلام ووجدوا في الاستعمار وفي يهود وفي الشيوعية الملحدة ما يحقق مآربهم وفعلاً تم لهم ما أرادوا فأخرجوا هذا الشعب الآمن من عشه، وأذاقوه الويلات وما نجده وما نشاهده من فعل هذه القوى في بلاد العرب بتأييد من أعداء الإسلام، من فتك بالدعاة إلى الله، ومن دك لدور العبادة التي لم يستطع المستعمر أن يدكها، ومن تصفية جسدية لكل شريف من أبناء العروبة، إن هذا لخير دليل على ذلك وربما يأخذ عليَّ القارىء الكريم هذا الاستطراد ولكن ماذا يضرُّ القلم إذا قال الحق وحرص عليه وثار على الظلم.

ومن أولئك الشعراء الذين نادوا بالحرب بعد أن عجزت الحيلة والمطالبة بالحرية والاستقلال والسلام. الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود الذي نال الشهادة في معركة الشجرة مع اليهود والإنجليز معاً: (٤٩)

سأحملُ روحي على راحتي ... وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تَسرُّ الصديقُ ... وإما مماتٌ يغيظُ العِدَى
أرى مقتلي دون حقي السليبِ ... ودون بلادي هو المرتضى
يلذُّ لأذنِي سماعُ الصليلِ ... ويبهجُ نفسي مسيلُ الدِما
وجسمٌ تجندل في الصحصحانِ ... تناوله جارحاتُ الفلا
كسا دمه الأرضَ بالأرجوانِ ... وأثقل بالعطر ريحَ الصَّبا
لعمرك هذا ممات الرجالِ ... ومن رامَ موتاً شريفاً فذا

في ظلال القصيدة:

لئن استعذبنا من شعراء العصر الحاضر قوة أشعارهم، وبراعة نظمهم، وسلاسة أفكارهم، وقوة تأثيرهم، وعلى رأسهم أمير الشعراء شوقي فإن هذا الشاعر البطل يتفوق على أولئكم بأنه كان مقاتلاً صنديداً وبطلاً هماماً حمل السلاح وحارب أعداء الوطن حرباً لا هوادة فيها بعد أن

أعيت كل وسائل المسالمة لجنود الاستعمار ويهود حتى نال الشهادة. وأبياته فيها من صدق المنطق، ووضوح العبارة وجلاء الدلالة ما يدخل شغاف قلوب عشاق الحق والحرية كيف لا وهي من لسان مؤمنٍ بربه مدافع عن عرضه وشرفه لم يقلها في مكتب من مكاتب نظم الشعر بل إنه قالها في خضم المعارك واحتدام صراع قوى الحق مع قوى الباطل.

وإن اليوم الذي يرجع الحق فيه إلى أهله ليس ببعيد وعلى هؤلاء الذين قهرتهم قوى الظلم والإلحاد والإجرام عليهم بكل صدق وإخلاص الرجوع إلى سبيل واحد لا ثاني ولا ثالث له إنه سبيل التمسك بالعقيدة الإسلامية والإقتداء بسنة الرسول ﷺ ولن يصلح أمر هؤلاء المقهورين إلا بالرجوع إلى الله تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم).

ومن قطعة حربية يقول الشهيد عبد الرحيم محمود بعد أن مل أبناء فلسطين دعوة الاستعمار واعتداء بني يهود على المقدسات الإسلامية في فلسطين وذلك في قصيدته المشهورة دعوة إلى الجهاد. (ديوان ص ٧٥).

دعا الوطن الذبيح إلى الجهاد   فخف لفرط فرحته فؤادي
وسابقت النسيمَ ولا افتخارٌ   أليس علي أن أفدي بلادي
حملت على يدي روحي وقلبي   وما حَملتها إلا عتادي
وقلت لمن يخاف من المنايا   أتفرقُ من مجابهةِ الأعادي
أتقعد والحمى يرجوك عوناً   وتجبن عن مصاولة الأعادي
فدونك خدر أمك فاقتحمه   وحسبك خسةً هذا التمادي
فللأوطان أجنادٌ شدادٌ   يكيلون الدمار لأي عادي
تراهم في الوغى أسداً غِضَاباً   معاويناً إذا نادى المنادي
بني وطني دنا يومُ الضحايا   أعز على ربا أرض الميعاد
فمن كبش الفداء سوى شبابٍ   أبي لا يقيمُ على اضطهادِ(٥٠)
ومن للحرب إن هاجت لظاها   ومن إلا كُمُ قدحُ الزِناد
فسيروا للنضالِ الحقّ ناراً   تصب على العدى في كل وادِ(٥١)
فليس أحط من شعبٍ قعيدٍ   عن الجُلَّى وموطنُه ينادي

° ° °

بني وطني أفيقوا من رقادٍ　　لما بعد التعسف من رقادِ
قفوا في أيٍّ كان صِفاً　　حديداً لا يؤول إلى انفرادِ
ولا تجموا إذا أربدت سماءٌ　　ولا تهفوا إذا ثارت بوادي
ولا تقفوا إذا الدنيا تصدّت　　لكم وتكاتفوا في كلّ نادي
إذا ضاعت فلسطينٌ وأنتم　　على قيد الحياةِ ففي اعتقادي
بأن بني عروبتنا استكانوا　　وأخطأ سعيَهم نهجَ الرشادِ

في ظلال القصيدة:

بعد أن نمعن النظر في هذه الأبيات الجميلة السبك، العذبة الرص القوية الأداء، البارعة السناء، العظيمة الأسلوب، الرقيقة الأهداف، الغزيرة المعاني، الوارفة الظلال، الثرة الإيحاءات بمعنى الحرب وطلب الشهادة في سبيل الله نخرج بما يأتي:

أولاً: إن هذا الشاعر من أبناء النكبة وقد قذف هذه المعاني الكريمة من واقعٍ مرّ من معاناة هذا الشعب الأبي لمكائد الإنجليز واليهود على أرض الأسراء والمعراج.

ثانياً: لا نجد في هذه القصيدة إلا كل يسير في المعنى فصيح في اللفظ صادق في العاطفة، بارع في حسن النظم ذلك لأن هذا الشاعر وهبه الله عاطفة إسلامية جياشة بعيدة عن الزيف والإدعاء والكذب فهو ابن الحرب بلا منازع.

ثالثاً: نلمس من هذه القصيدة الغراء تحذيراً لعموم المسلمين والعرب بأن يستعدوا للخطر الداهم الذي يتمثل في مكائد الصليبية واليهودية والشيوعية ممثلة في قول القائد الإنجليزي الذي دخل القدس واسمه اللورد (اللنبي) وقال القول المشهور بعد احتلاله لبيت المقدس:

● «الآن انتهت الحروب الصليبية» ●

فقد أفصح هذا القائد الصليبي عن مكنونات صدور الاستعمار من استمرار الحروب ضد العالم الإسلامي.

رابعاً: إن هذا الشاعر قد وجه الخطاب في كليته إلى الشباب وهم عصب الحياة وقوة الأمة ورمز التحرير والجهاد في سبيل الله دون الالتفات إلى الصعاب من الأعداء.

خامساً: إن إصرار الشاعر على أن يشارك الشعب العربي المسلم في الحرب ضد الإنجليز

واليهود ثم عدم الاكتراث بنزيف الدماء وسقوط القتلى وتيتم الأطفال وتدمير المعالم الحضارية سبب أساسي لاشتداد دوافع الحرب واستعادة الحقوق المغتصبة. ذلك أن الحرب لها الكثير من المنافع في جمع الشعب المتفرق والقضاء على السلبيات والرجوع إلى الله تعالى لإلتماس نصره بعد تحكيم شرعه والتزام أوامره ونواهيه. هذه الحرب هي نعمة إن جاز هذا التعبير وصدق الله العظيم الذي يقول: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)(٥٢) ويقول تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع)(٥٣).

وقد ألم الشاعر الشهير عبد الرحيم محمود ببعض المعاني لهذه الآية الكريمة فقال من قصيدة الجامعة العربية(٥٤).

أصهر بنارك غِلّ عنقكِ ينصهر   فعلى الجماجمِ تركزُ الأعلام
وأقم على الأشلاء صرحك إنما   من فوقه تبنى العلا وتُقام
واغصب حقوقك عنوةً لا تستجدها   إن الألى سلبوا الحقوق لئام
هذي طريقك للحياة فلا تحد   قد سارها من قبلك الأقوام

* * *

حقاً أيها القارىء الكريم إن الحياة للأقوياء، وليست للضعفاء لأهل الحق ولو كانوا مغلوبين وليس لأهب الباطل ولو كانوا باغين معتدين ذوي سلطان، وعلى هذا إن أمام المنكوبين من أهل فلسطين طريق الجهاد بعد الرجوع إلى الله تعالى لأن الله يقول: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد)(٥٥).

ويصور لنا الشاعر السعودي محمد بن عثيمين الذي رافق موحد هذه الجزيرة بعد تفرقها، وجامعها بعد تناحر قبائلها، وملاحقة أعداء التوحيد والوحدانية من الحاقدين والمبتدعة وفلول من يضعون أنفسهم في أعلى مراتب الرفعة والشرف يصور لنا هذا الشاعر شجاعة الملك عبد العزيز طيب الله ثراه وقوة جأشه والتفاف القبائل تحت سلطانه تاركاً الضعفاء وناعياً على كل من لا يأخذ حقه حتى صارت هذه الجزيرة رمزاً للأمن والسلام والعدل وما ذاك إلا بترسيخ قواعد الإسلام الصحيح والقضاء على كل معاول الهدم من أدعياء الإسلام.

يقول محمد بن عيثمين أبياتاً مستوحاة من لهيب المعارك ليس من نظم بعيد عن جو القتال والمقاتلين بل إنه من طلقات الرصاص وأزيز المدافع.

يقول(٥٦) محمد بن عيثمين في فتح الاحساء: (ديوانه ١/١٥).

العزُّ والمجدُ في الهندية القُضُب   لا في الرسائلِ والتمنيقِ للخطب
تقضي المواضى فيمضي حكمها أَمما   إن خالج الشك رأى الحاذقِ الأرب
عبد العزيز الذي ذلت لسطوته   شوسُ الجبابرِ من عُجْمٍ ومن عربِ
الله أكبر هذا الفتح قد فتحت   بـه من الله أبواب بلا حجب
فتح به أضحت الاحساء طاهرة   عن الجهادِ فما مر كالجُنب

في ظلال القصيدة:

القتال والمقاتلون والعز والشرف وإزهاق الباطل وإحقاف الحق هي روح هذه الأبيات التي اقتدى بها ابن عيثمين بالشاعر العباسي أبي تمام فهو يقرر أن الحق لا بد له من قوة تحميه ومن عقيدة يسير على هداها للنصر والغلبة وعبد العزيز هو الإمام الذي هيأه الله لتوحيد هذه الجزيرة بعد أن كانت أشتاتاً لا يجمع بينها إلا الصراع القبلي والنزيف الدموي والخراب في فقدان الأبطال والرجال فاختارت العناية الإلهية هذا الرجل وتم على يديه بإذن الله توحيد هذه الديار المترامية الأطراف تحت اللواء الخالد...

● لا إله إلا الله محمد رسول الله ●

وصدق الله العظيم الذي يقول: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً». سورة الأحزاب الآية ٢٢.

وستبقى هذه الديار محمية برعاية الله وعنايته ما تمسكت بهذا الشعار الخالد وبهذا النداء الرباني الذي يدعو المؤمنين للتمسك بكتابه وتنفيذ أحكامه.

«الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة». سورة الحج الآية ٤١.

وهكذا نجد عند هذا الشاعر معالم واضحة لعبقرية وشجاعة الملك عبد العزيز طيب الله ثراه.

وفي شمال أفريقيا الذي ابتلى بالاستعمار الفرنسي يقول الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي(٥٧).

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيبَ القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيدِ أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها واندثر

فإن الإرادة القوية هي التي تصنع حياة الأمم الماجدة وتقضي على عوامل الضعف والتخلف ولا بأس من بذل كل غال ورخيص من مال ودماء وشقاء في سبيل هذه الغاية الكريمة ثم يقول أبو القاسم الشَّابي في نفس القصيدة.

وأعلن في الكون أن الطمو ح لهيبُ الحياةِ وروحُ الظفر
إذا طمحت للحياة النفوس فلا بد أن يستجيب القدر

فالحياة في رأي أبي القاسم هي للأقوياء وإن كانوا من أهل الطموح الظالمين وليست للضعفاء المساكين.

وبعد..

فإن الإسلام حريص على حياة السلام بين الأفراد، وبين الشعوب، وقد رأينا أن آيات القرآن الكريم قد دعت إليه وكذلك أحاديث الرسول ﷺ دعت إليه وسيرة الخلفاء الراشدين مع قادة المسلمين أثناء الفتوح كانت خير دليل على المحافظة على السلام.

ثم استعرضنا بعض النماذج للشعر في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام وفي عصور تالية تحث على السلام والإلتزام به والإبتعاد عن الحروب. أما إذا فقدت كافة الوسائل لاسترداد الحقوق من مال وعرض ووطن فليس هناك إلا القتال والحرب.

وصدق الله العظيم الذي يقول: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)(٥٨).

•••

الهوامش

(١) الأمالي الجزء الثاني ص ٢٧١ ـ ٢٧٣، الأغاني الجزء الرابع ص ١٢٩ ـ ١٣١.

(٢) الرسل: المهل، الرداح الثقيلة: الأوراك، الجأش: روح القلب القِرن: المكافىء، وشانئي: عائبي.

(٣) الخطية: الرماح منسوبي إلى منطقة مشهورة بها وهي البحرين تعرف بالخط، الشريعة: المذهب، الوغى: الحرب.

(٤) الشتيم: الكريه، العابس: المكثر للحرب.
(٥) راجع الأمالي ٢/٧٥، والأغاني ١٤/١٣٤.
(٦) سورة الأنفال، الآيتان (١٥، ١٦).
(٧) المفضليات ١/١٦٠، الأمالي ١/٢٥٥، الأغاني ٣/١٠٤.
(٨) معاني الكلمات: اقليه: أبغضه، عرض الدنيا: المال والبنون والجاه، منقصتي: إهانتي، يشجيني: يحزنني، ممنون: مقطوع.
(٩) لنت: من اللين والتسامح، أجازي: أكافىء، بيني: فارقي وهو من البين بمعنى البعد والفراق.
(١٠) حماسة أبي تمام ٣٩٣، الحسام: السيف، المهند: المصنوع في الهند.
(١١) الحماسة ص ١٠٠، المعلقات، معلقة النابغة ص ٦٤. الشعث: التفرق.
(١٢) صحيح الجامع الصغير رقم ٤٣٩١ ص ٢/١٧١.
(١٣) سورة الحجر ٤٩، ٥٠.
(١٤) سورة الحجر ١٥.
(١٥) سورة النساء ٤٨.
(١٦) سورة الأعراف ١٩٩.
(١٧) سورة المزمل، آية ٩.
(١٨) سورة فصلت، آية ٣٤.
(١٩) سورة التوبة، آية ٦.
(٢٠) سورة آل عمران، آية ١٥٩.
(٢١) صحيح الجامع الصغير رقم ١١٥٠ ـ (١/٣٥).
(٢٢) صحيح الجامع الصغير ـ الألباني رقم ٢٣٦٩ ص ١٤٣ جـ ٢.
(٢٣) سورة آل عمران ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٢٤) انظر الأمالي ٢/١٠٢ ـ الأغاني ١٢/٦٠ ـ المعاني لأبي هلال العسكري ١/١٥٢، حماسة البحتري ٣٨٢.

معاني الكلمات:

ضغنة: حقده، رغمي: إذلالي وإهانتي، سمته: حملته وكلفته، السفاهة: الإثم، الوزر، صالحي طيبي، أغض، أغمض، قذي: قذارة، الرائش: الذي يدخل السهم بالريش لتدخل بسهولة ويسر، يستهاض: يكد.

(٢٥) حماسة البحتري ص ١٠٧ خلة طبع.
(٢٦) ديوان بشار بن برد ١/٣٠٩.
(٢٧) ديوان المتنبي ص ٩٧، اليد: الجميل والإحسان، الندى: الكرم.
(٢٨) شرح المعلقات العشر للتبريزي ص ١١٧.

الحديث المرجم: الحديث غير المتوقع، تضد: تتمرن، تضرم: تشتغل، السحيل: خيط دقيق، والمبرم: خيط مفتول شديد.

(٢٩) تغل: تغطي، قفيز، مكيال.
(٣٠) سورة آل عمران ـ آية ١٦٤.
(٣١) سورة آل عمران آية ١٠٣.
(٣٢) سورة الأحزاب آية ٤٤.
(٣٣) سورة الفرقان آية ٦٣.

(٣٤) سورة التوبة آية ١٣.
(٣٥) سورة البقرة آية ١٩٤.
(٣٦) سورة البقرة آية ١٩٠.
(٣٧) صحيح الإمام البخاري ٦٣/٤، المطبعة الحديثة ١٣٢٠هـ.
(٣٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤٩/٤.
(٣٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤٩.
(٤٠) سورة الحج، الآيتان ٣٩ ـ ٤٠.
(٤١) سيرة ابن هشام ٢٦٧/٣.
(٤٢) راجع المؤتلف والمختلف ص ٩ والإصابة ١١٢/١.
(٤٣) جمهرة الأمثال على هامش مجمع الأمثال للميداني ٢٩٣/١.
(٤٤) جمهرة الأمثال لابن هلال ص ٢٣٨/١.
(٤٥) ديوان أبي تمام ص ٢٧٣ والعقد الفريد ١١٠/١.
(٤٦) لزوم ما يلزم ٣٠٧/١.
سرائر: جمع سريرة وهي لا يعلن، بائح: معلن، القرائح: جمع قريحة وهي النفس الذكية، الأميل: جمع ميل وهو المرود الذي يقاس به الجرح.
(٤٧) راجع جريدة الأهرام ١٧ نوفبر سنة ١٩١٤، والشوقيات المجهولة ١٦٣/٢.
(٤٨) الشوقيات ١٧/٣.
ركزوا: وضعوا الجثة، البغضاء: الحقد والضغينة، الحرية الحمراء: الحرية التي لا تؤخذ إلا بالدم.
(٤٩) ديوانه ص ٥٤.
(٥٠) أبي: حر، لظاها: هولها، الجلي: الأمر العظيم، التعسف: الظلم، أربدت: أرعدت، تجموا: تجنبوا، تهنوا: تصعفوا، استكانوا: ذلوا.
(٥١) راجع ديوانه ص ٧٥.
(٥٢) سورة البقرة آية ٢٥١.
(٥٣) سورة الحج آية ٤٠.
(٥٤) الديوان ص ١٤٤.
(٥٥) سورة غافر آية ٥١.
(٥٦) العقد الثمين، شرح ديوان ابن عيثمين ١٥/١.
(٥٧) ديوانه ص ١٦٧.
(٥٨) سورة البقرة، آية ١٨٩.

• مراجع البحث •

١ ـ تفسير ابن كثير ـ ابن كثير ـ دار القرآن الكريم/ بيروت.
٢ ـ تفسير الكشاف ـ الزمخشري ـ دار الفكر/ بيروت.

٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد عبد الباقي ـ دار أحياء التراث/ بيروت.
٤ ـ المعجم المفهرس للحديث ـ كرنكو ـ ليدن ١٩٣٦م.
٥ ـ صحيح البخاري ـ الإمام البخاري ـ المكتبة الإسلامية/ تركيا.
٦ ـ فتح الباري ـ ابن حجر ـ إدارة البحوث بالرياض.
٧ ـ سيرة ابن هشام ـ ابن هشام ـ دار الجيل/ بيروت.
٨ ـ الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ـ دار بيروت للطباعة والنشر.
٩ ـ تاريخ الأدب العربي ـ د. علي الجندي ـ مكتبة الجامعة العربية ط ٢.
١٠ـ شعر الحرب في العصر الجاهلي ـ د. علي الجندي ـ مكتبة الجامعة العربية ط ٢.
١١ـ أيام العرب في الجاهلية ـ محمد جاد المولى وآخرون ـ القاهرة ١٩٤٢م.
١٢ـ شرح المعلقات السبع ـ الزوزني ـ بيروت/ دار صادر.
١٣ـ شرح المعلقات العشر ـ التبريزي ـ بيروت/ دار صادر.
١٤ـ أشعار الشعراء الستة ـ الاعلم الشنتمري ـ دار الآفاق/ بيروت.
١٥ـ محاضرات الأدباء ـ الراغب الأصبهاني ـ دار الحياة/ بيروت.
١٦ـ لسان العرب ـ ابن منظور المصري ـ دار صادر/ بيروت.
١٧ـ القاموس المحيط ـ الفيروز آبادي ـ دار الفكر/ بيروت.
١٨ـ عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ـ دار الكتاب العربي/ بيروت.
١٩ـ تاريخ الأدب العربي ـ د. عمر فروخ ـ دار العلم للملايين/ بيروت.
٢٠ـ الكامل في الأدب ـ المبرد ـ مكتبة المعارف/ بيروت.
٢١ـ الأمالي ـ القالي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢٢ـ خزانة الأدب ـ البغدادي ـ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
٢٣ـ الطبيعة في الشعر الجاهلي ـ د. نوري قبسي ـ دار الإرشاد بيروت.
٢٤ـ الخيل ـ الأصمعي ـ فيينا ١٨٩٥م.
٢٥ـ المفضليات ـ المفضل الضبي ـ أكسفورد ١٩١٨م.
٢٦ـ جمهرة أشعار العرب ـ لأبي الخطاب القرشي ـ القاهرة ١٨٩٠م.
٢٧ـ شعراء النصرانية ـ لويس شيخو ـ بيروت ١٨٩٠م.
٢٨ـ ديوان عنترة بن شداد ـ القاهرة ١٩١١م.
٢٩ـ ديوان عامر بن الطفيل ـ لندن ١٩١٣م.
٣٠ـ ديوان طفيل الغنوي ـ لندن ١٩٢٧م.
٣١ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ بولاق ١٢٩٣هـ.
٣٢ـ شرح النقائض ـ معمر بن المثنى ـ ليدن ١٩٠٥م.
٣٣ـ مجمع الأمثال ـ الميداني ـ القاهرة ١٨٩٣م.

٣٤ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ دار المعارف ١٩٦٦م.
٣٥ـ المجتمعات الإسلامية ـ د. شكري فيصل ـ دار العلم للملايين.
٣٦ـ الفروسية ـ ابن القين (مخطوطة) دار الكتب العلمية.
٣٧ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ دار الفكر/ بيروت ١٩٧٨م.
٣٨ـ الأصمعيات ـ الأصمعي/ تحقيق شاكر وهارون ـ دار المعارف/ القاهرة.
٣٩ـ فتوح العراق ـ محمود شيت خطاب ـ المثنى ١٩٦٠م.
٤٠ـ شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد. ـ دار مكتبة الحياة.
٤١ـ فجر الإسلام ـ د. أحمد أمين ـ دار الكتاب العربي بالقاهرة.
٤٢ـ الإعلام ـ خير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ط٣.
٤٣ـ معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة ـ مكتبي المثنى ١٩٥٧م.
٤٤ـ العصر الجاهلي ـ د. شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.
٤٥ـ الفروسية في الشعر العربي ـ د. نوري قيس ـ منشورات مكتبة النهضة.
٤٦ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ دار صادر/ بيروت.
٤٧ـ الشعراء الصعاليك ـ د. يوسف خليف ـ دار المعارف بمصر.
٤٨ـ مصادر الشعر الجاهلي ـ د. ناصر الدين الأسدي ـ دار المعارف بمصر ط٤ عام ١٩٥٦م.
٤٩ـ مختارات من شعراء العرب ـ ابن الشجري ـ المطبعة العامرة بمصر.
٥٠ـ طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام الجمحي/ تحقيق شاكر ـ دار المعارف بمصر.

◆